



## **Sûrat ġadaliyyat al-'anâ wa l-âḥar fî l-ḥiṭâb al-riwâ'î: Riwayat al-Ṭayyib Şâlih "Mawsim l-hiġra ilâ š-šamâl" namûḍaġan**

Sarra Barbouchi

### **► To cite this version:**

Sarra Barbouchi. Sûrat ġadaliyyat al-'anâ wa l-âḥar fî l-ḥiṭâb al-riwâ'î: Riwayat al-Ṭayyib Şâlih "Mawsim l-hiġra ilâ š-šamâl" namûḍaġan. Cahiers "Fariqa" de l'institut supérieur des sciences Humaines de Jendouba , 2019, 1 (2), pp.57-70. <hal-02151386>

**HAL Id: hal-02151386**

**<https://hal.science/hal-02151386v1>**

Submitted on 12 Jun 2019

**HAL** is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire **HAL**, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.



HAL Authorization

## صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي : رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطبيب صالح نموذجاً.

أ.د. سارة البربوشي

جامعة تولوز 2 جان جوريس

"إلى الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء إما سوداء أو بيضاء، إما شرقية أو غربية."<sup>1</sup>

تعتبر جدلية الأنا والآخر مسألة عريقة في الفكر البشري تعود أصولها إلى سقراط وإلى عبارته المشهورة "اعرف نفسك"، لكنها تجاوزت ذلك لتصبح أكثر حضوراً وإلحاحاً في العقود الأخيرة وخاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر عند تغلغل الاستعمار الأجنبي ورسوخه في العالم العربي قصد السيطرة عليه واستغلاله سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وتغريبه دينياً وحضارياً وتشكيكه في عقيدته وفكره وقدراته.

ومما لا شك فيه أن مسألة المقابلة بين الأنا والآخر سلماً أو إيجاباً، بغضاً وصراعاً، أو محبةً وتواصلاً، هو موضوع قديم قدم الوجود البشري نفسه، وقد تمت معالجته -بخلاف الأعمال الروائية- من خلال مقاربات نظرية أخرى عديدة، ومن زوايا متعددة ومضامين شتى : فلسفية وسياسية وأنتروبولوجية وسوسولوجية وتاريخية وما إلى ذلك من المنطلقات المختلفة لسائر العلوم الإنسانية الأخرى. فاهتم به مفكرون وكتاب كثيرون من بيئات وثقافات وخلفيات وأزمان متباينة<sup>2</sup>.

أما في مجال القصة والرواية بصفة عامة، فقد كان لموضوع العلاقة بين الأنا والآخر مكانها البارز في عدد من الروايات التي أبدعها نفر من الروائيين النابهيين في شتى أنحاء العالم. ومن بين تلك الروايات العالمية التي عرضت إلى هذه الإشكالية نذكر على سبيل المثال لا الحصر كلاً من رواية "قلب الظلام" للكاتب البولندي "جوزيف كونراد" (1857-1942)، ورواية الكاتب الفرنسي: ألير كامو (1913-1960) "الغريب" (L'Etranger) ورواية الروائي الإنجليزي إدوارد مورغان فورستار (1879-1970) "A Passage to India" وغيرها.

<sup>1</sup> الطبيب صالح، الأعمال الكاملة، موسم الهجرة إلى الشمال، بيروت، دار العودة، 2004، ص158.

<sup>2</sup> نذكر منهم على سبيل المثال أبو عثمان الجاحظ (ت.867)، ابن خلدون (1332-1406)، كارل ماركس (1818-1883)، رفاة<sup>2</sup> الطهطاوي (1801-1873)، محمد عبده (1849-1905)، وغيرهم.

كما أولت العديد من الأعمال الروائية العربية على غرار نظيراتها في مختلف أنحاء العالم عناية فائقة واهتماما بإبراز جدلية العلاقة بين الذات والغير، من بين هذه الروايات رواية "علاء الدين" لعلي باشا مبارك ورواية "زينب" لمحمد حسين هيكل ورواية يحيى حقي "قنديل أم هاشم" ورواية سهيل إدريس "الحي اللاتيني" ورواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" ورواية عبد الرحمن منيف "شرق المتوسط" وغيرها من الروايات التي رصدت وصوّرت بعمق العلاقة المتوترة والملتبسة بين الشرق والغرب.

فضمن جدلية علاقة الأنا والآخر يندرج موضوع هذه الورقة التي تهدف إلى إبراز مفهوم الآخر في رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" وموقف الأنا منه مع محاولة استجلاء أهم ملامح هذه العلاقة الثنائية التي تبدو حاضرة وبقوة في جميع الآثار الإبداعية الرائعة التي خلفها هذا الكاتب والقاص والروائي الكبير بل لعلها تكون من أبرز سمات وخصائص عالمه الروائي والقصصي. فكيف شخصت روايته إذن جدلية الذات والغير؟

الطيب صالح أو كما درج بعض النقاد على تسميته "عقري الرواية العربية" وصاحب "موسم الهجرة إلى الشمال" الرواية التي اختيرت ضمن أفضل مئة رواية عالمية في القرن العشرين، مثّل وبعث العلاقة بين السوداني والانجليزي والتصادم بين الشرق والغرب في هذه العلاقات الإنسانية. فهذا الروائي العالمي المبدع شأنه شأن شاعره الأثير أبي الطيب المتنبي، ملأ الدنيا وشغل الناس، حيث توطدت مكانته في الآفاق العربية والأعجمية واعتُبرت أعماله الروائية فتحة جديدا في عالم الرواية العالمية. قال عنه الكاتب الجزائري "واسيني الأعرج" مؤخرا وذلك ضمن فعاليات "جائزة الطيب صالح للإبداع الكتابي في نسختها الخامسة": «الطيب صالح قيمة عربية وإنسانية من القيم الثقافية التي تخطت حدود السودان وذهبت بعيدا من خلال مختلف القنوات...».

كلنا نعلم أنّ الطيب صالح هو ابن السودان الأصل ونعلم أيضا أنّه أقام مدة لا بأس بها في بريطانيا وأنّ كل هذه العناصر عمّقت شعوره بالانتماء إلى بلده وجعلته يترسّخ في ثقافته وعمقها فزاد -على حدّ قول بلند الحيدري- "التصاقا حميما بجلده وغار أعماق وأعماق في دكنة بشرته"<sup>3</sup> فهو يحمل في كلّ جارحة من جوارحه "حب السوداني الأصل بلا ضوضاء" -كما كان الطيب نفسه يقول- ومعاناته اليومية.

مقال بلند الحيدري، "الطيب صالح ف غربته وإبداعاته"، ضمن دراسات نقدية نشرها وحررها الدكتور حسن أبشر الطيب، بيروت-<sup>3</sup> لبنان، رياض السيد للكتب والنشر، 2001.

كتب الطيب صالح للإنسان، للتجذر، للتأصيل... فهو ذاكرة سرديّة هاجرت إلى العديد من القضايا فعبّرت عن هموم السودان وعن هموم الأمة العربيّة جمعاء. لقد وضع هذا الروائيّ سودانه على خريطة الأدب العربيّ وحمل اسم السودان إلى كلّ مكان مع أنّه أمضى معظم عمره خارجه فهو عاش في الغرب وعاد كالنحلة الضاربة في العمق متّيم بأصوله وجذوره السودانيّة<sup>4</sup>، إنّهُ سودانيّ حتى العظم وعربيّ مؤمن أعظم الإيمان بعروبتّه وهو عاشق للسودان وكلف به وبحضارته، لكنه في الوقت نفسه انفتح على الآخر واكتشف عالَمه المغاير والمختلف. فهو أديب، في أدبه أحبّ المتنبّي وأحبّ كلّ جميل في الشرق والغرب. ولذلك كله يعتبر من الأوائل الذين سكبوا عصارة جهدهم من أجل قراءة تستوعب الحاضر والماضي ومن أجل تأسيس علاقة غير العلاقة الخرافيّة التي كانت موجودة بين شرق متخلف وهو الأنّا الذي تمثله الذات العربيّة وغرب متقدم" وهو الآخر الذي يرمز لحضارة الغرب<sup>5</sup>. وهو ما سأحاول إبرازه والكشف عنه في القسم الثاني من هذه الورقة.

كشالات النور تنبثق الأفكار غزيرة كلّما توغلنا في قراءة "موسم الهجرة إلى الشمال" لكن المجال لا يتسع لتقديم الرواية تقديمًا كافيًا شافيًا وإعطائها حقّها كاملاً، وحسبنا أن نقول عنها إنّها حدث استثنائيّ في تاريخ الرواية العربيّة وانطلاقاً في آفاق جُسُورة لإناطق المسكوت عنه في الثقافة العربيّة التي لا تزال تقليديّة في مجملها. "فموسم الهجرة إلى الشمال" بعيدة كلّ البعد عن التقليد أو التصنّع أو التزمّت أو الخوف. فالجسارة الكتابيّة التي تنطوي عليها فتحت لها قلوب وعقول القراء المتعطّشين إلى عوالم جديدة والمتلهّفين على من يقتحم المناطق التي ظلّت مغلقة لم تجد من يفتحها إلّا مع أمثال "موسم الهجرة"، تلك الرواية الكاشفة عن كثير ممّا لم تكن الرواية العربيّة تعودت الكشف عنه، فهي تناولت جدلية العلاقات بين الكيانات الحضاريّة المتباينة والالتباس والتناقض الكائن بين تلك الكيانات الثقافيّة والحضاريّة المختلفة وطرحت قضايا الهويّة والعلاقة بالآخر والمعاصرة ومكانة المرأة على نحو صريح.

كما ترجمت مشهد صدمة الاحتكاك بين الشرق والغرب وكشفت بشكل عميق وجوهري عن مكنونات النموذج الشرقيّ الذي شكل وجدانه خليط من التوق الصادق لمعرفة الآخر والتطلع للوصول إلى مرتبته الحضاريّة المتقدمة والاعتراف بفضلّه وتقديمه تارة وإدانته والكشف عن جوهره الاستعماريّ البغيض تارة أخرى. "فالموسم" مزدحمة بالمعاني

<sup>4</sup> . الفكرة مقتبسة من حوار أجراه الشاعر شكري السلطاني على أمواج الإذاعة الوطنيّة التونسيّة، فيفري، 2015.

<sup>5</sup> الفكرة مستوحاة عن واسيني الأعرج، من حواراته عن الطيب صالح، القدس العربي، 24 فيفري، 2015.

والدلالات والمقابلات تدور في مجملها حول مسألة الشرق والغرب التي نظر إليها المؤلف من زاويته الخاصة فوجدها مسألة الجنوب والشمال وسواء كانت المسألة شرقاً أو غرباً أم جنوباً وشمالاً فهي في الحالين علاقة العالم العربي الإسلامي بالحضارة الغربية الأوروبية، ممثلة بصورة خيالية ورمزية في شخصيتي الشاب السوداني الذي سافر إلى بريطانيا للدراسة في عشرينيات القرن الماضي، والذي يمثل هو نفسه بوصفه سودانياً، مزيجاً للهويات والكيانات العربية والإسلامية والأفريقية مجتمعة. وقد عبّر عن ذلك بوضوح في موسمه عندما سأله إيزابيلا سيمور البريطانية الجنسية وإحدى شخصيات الرواية عن جنسه قائلاً: "أنا مثل عطيل، عربي أفريقي [...] أنا وجهي عربي كصحراء الربع الخالي، ورأسي إفريقي يemor بطفولة شريفة".<sup>6</sup>

إنّ مقابلة الشرق بالغرب أو الغرب بالشرق في الرواية العربية ليست مقابلة بين مكانين أو جهتين من الجهات الأربع وإنّما هي تاريخين أو طورين من أطوار التقدم أو شرطين من شروط قيام الحضارة وبناء الشخصية. وهذا ما أبرزته العديد من الروايات العربية بشكل جلي أيّما جلاء. فعبر توفيق الحكيم في روايته "عصفور من الشرق" ويحيى حقي في روايته "قنديل أم هاشم" وسهيل إدريس في روايته "الحي اللاتيني" عن مشكلة الصراع بين الشرق والغرب وكيف تواجه الشعوب الجديدة هذه المشكلة، كيف تعالجها وتتصرف فيها؟ هل تترك هذه الشعوب ماضيها وتستسلم إلى الحضارة الغربية وتذوب فيها وتقلّدها تقليداً كاملاً؟ هل تعود هذه الشعوب إلى ماضيها وترفض الحضارة الغربية وتعطيها ظهرها وتنكرها إنكاراً لا رجعة فيه؟ هل تتخذ موقفاً ثالثاً يختلف عن الموقفين السابقين؟ وما هو الموقف الجديد؟<sup>7</sup>

تلك هي نفسها القضايا التي شغلت الطيب صالح وشغلت جيله بل الأجيال المتعاقبة فهي أسئلة جوهرية ما تزال إلى اليوم حية، مسها عن قرب في رواياته ورؤاه واجتهد في التعبير عنها فجاء موسمه تجسيدا عميقا لعلاقة متوترة شديدة التعقد والصعوبة أسهمت فيها عوامل تاريخية كثيرة ساعدت في احتدام الصراع بين الطرفين: بين الذات العربية والآخر الأجنبي بالنظر إلى تضارب مصالحهما واختلاف أنساقهما الثقافية والاجتماعية وتباين مواقفهما من الوجود. ولم تعمل السنون المتعاقبة إلا على ذرّ الملح في جراحهما وتوسيع الهوة بين وجهات نظريهما. فالآخر الأجنبي هو المستعمر وهو أصل الشر والبلاء ومرجع الصورة القاتمة التي بناها العربي الأنا عنه، وهو لم يؤدّ إلى إبادة البشر وكسر خصوصيات

<sup>6</sup> موسم الهجرة إلى الشمال، ص 48.

<sup>7</sup> رجاء النقاش، «الطيب صالح، عبقرية روائية جديدة»، ص 80، مقال نشر في كتاب الطيب صالح، عبقرية الرواية العربية، بيروت، دار العودة، إعداد مجموعة من الكتاب، 1981، ط.3.

الشعوب واستعبادها وحرمانها من حقوقها الإنسانية الدنيا فحسب وإنما إلى تنامي مشاعر الكراهية والانتقام بين الطرفين المتنازعين وهو أيضا من أسهم -على حد تعبير واسيني الأعرج- «في خلق الرجل الرافض له ولسلطانه والقابل الذي سينتج عنه العربي المرتبك في ثقافته وخياراته والحاقد أيضا ضد من أذله تاريخيا»<sup>8</sup>، فيجد نفسه مذذبا تائها عاجزا عن تحديد وجهته وسط مجتمع عربي يتطور بسرعة فائقة ومجتمع عربي يتقهقر باستمرار ويخلو من أي نظام يحكمه. فإما أن يميل هذا الأنا - المستعمر (بفتح الميم) كل الميل نحو الخيارات السهلة فيتبنى أطروحات المجتمع الغربي وتستهويه الحياة الغربية ويعتبرها منتوجه التحتي وإما أن يغرق في أصالة جامدة تقوده نحو الأطروحات العرقية الضيقة أو الدينية.

ومما يجب الوقوف عنده في هذا المقام وإبرازه أنّ الطيب صالح يعكس في "موسم الهجرة إلى الشمال" مخاض ولادة تاريخية للحضارة الإنسانية وهي ثمرة ذلك اللقاء بين الشرق والغرب، كما يصور العقبات الموضوعية التي تحول دون التواصل النبيل ما بين الحضارتين وذلك عبر شخوصه التي أحكم صنعها ومن خلال الحكايا الصغيرة -لكنها عميقة في معناها- التي تفنن في سبكها وحبكها بلغة عربية في غاية الصفاء والأناقة والشاعرية، مفككا طرائق تفكير العربي والعقلية العربية من ناحية وطرائق تفكير الغربي والعقلية الغربية من ناحية أخرى.

فمصطفى سعيد أو كما قيل عنه "رسول العاصفة" وبطل الرواية أو بطلها الآخر أو بطل الرواية الأخرى لأنّ موسم الهجرة روايتان في رواية واحدة بدأت بحكاية الراوي التي ما كادت تبدأ حتى انقطعت فجأة لتبدأ حكاية هذا الغريب المهاجر الذي أثار فضول الراوي وحمله وحملنا معه إلى تاريخه الضبابي البعيد ننقّب في أوراقه وصوره ونقلب في ذكرياته الأليمة.

إنّه رجل غامض حتى بالنسبة إلى نفسه، يتيم من مواليد الخرطوم لعام 1898، ولد بلا مشاعر أو عواطف ولم يبق منه سوى ذلك العقل الجبار المتوهج الذي لفت بنباهته وتفوقه الاستثنائي أنظار مديره وأساتذته الانجليز فاستحق البعثة الدراسية وشرع برحلته صوب الشمال حيث القاهرة ومنها إلى لندن وأوروبا. ينتقل بعقله النابه حاملا إرثه الفردي والقومي والعربي وعقدته المركبة من إحساسه العميق بشرقيته وزنوجيته في آن واحد. سافر إذن إلى لندن "غازيا" و"دخيلا" لأنه رأى الإنجليز في بلاده غزاة ودخلاء، مكث بها قرابة ثلاثين عام وعاش في هذا الزمان الطويل حياة عريضة متناقضة وغرق في تجارب

واسيني الأعرج، أسئلة الطيب صالح المستعصية.. ماذا لو استمع الحكام للأدباء، القدس العربي، 24 فيفري، 2015.<sup>8</sup>

متنوعة ثقافية وفكرية وعاطفية وجنسية، والأهمّ أنّه وصل هناك إلى أعلى درجات العلم وأصبح دكتوراً لامعاً في الاقتصاد ومحاضراً في إحدى جامعات إنجلترا ومؤلفاً مرموقاً.

لقد عرف مصطفى سعيد كل حانات أوروبا الخارجة للتو من الحرب ومن وطأة العهد الفيككتوري وقرأ الشعر الانجليزي والفلسفة وانتقد الرسم وكتب في الاقتصاد وتحدث عن روحانية الشرق ومارس كل الخزعات الشرقية من عطور وأعواد ند وصندل ليدخل المرأة البيضاء المستعصية إلى فراشة ثم يشرع بالبحث عن صيد جديد، كان يعاشر خمس نساء في آن واحد، معاً لإشباع رغبته المستحيلة الإشباع.

وإن كان مصطفى سعيد قد نجح في إنجلترا وتوفّق فيها مدفوعاً بنظرة الغربيين العنصرية، وإن امتدّت ثقافته واتسعت حتى شملت كثيراً من ألوان الأدب والفن والفلسفة إلا أنّه ظل في علاقته بالإنجليز منطوياً على كره دفين أو احتقار راسخ لا يخلو من الشعور برغبة الثأر التي ظلت قائمة كإرادة الانتقام الذي لا يهدأ بل ظل فيها -على حدّ قوله- "جنوباً يحن إلى الشمال والصقيع"<sup>9</sup>، ينطوي في أعماقه على النقائض في علاقته بالآخر الإنجليزي الذي يظل محبوباً ومكروهاً بالقدر نفسه. فهو يواجه- يغزو مدينة لندن كما لو كانت المدينة امرأة عجيبة لها رموز ونداءات غامضة ونساؤها وسيلة للانتقام والثأر من كل ما فعله الاستعمار الإنجليزي في أفريقيا السوداء.

فبطل "الموسم" كما جسّد الروائي الطيب صالح ليس رجلاً وطنياً متعصباً ولا ثورياً متطرفاً بل هو رجل انكبّ على عمله ينهل من ثقافة الإنجليز وينغمس في حياتهم، وهو كتلة من المشاعر المتبلدة تلخصت في ذكاء وقاد وذاتية مفرطة وحساسية عدائية للآخر تستثمر كل لقاء سلمي وإنساني مع الغرب لتحويله إلى فتح وافتراس ثأري جديد يسهم في تفكيك عقدة الدونية المنحدرة إليه من الشرقية والزنوجية التي يسعى مصطفى سعيد للخلاص منها.

إن هذا البطل الروائي الوافد من أفريقيا يتعثّر في أزمنة حادة مريرة ممزقة بين عالمين : الجنوب الذي يحمله في دمه والشمال الذي يمارسه في حياته ولا حلّ له في آخر الأمر إلا بأن يعود إلى قرية في قلب السودان، ليشترى بضعة أفدنة هناك ويعمل فيها بنفسه ويتزوج بنتاً من بنات القرية السودانية ويواصل حياته الجديدة بطريقة منتجة هادئة لم يعرفها من قبل في انكلترا حيث عاش هناك حياة عاصفة مؤلمة. فالعودة حلّ ارتآه الطيب صالح لبطله المعذب المضرب هي في حقيقة الأمر عودة إلى أصله ومنبعه ليبدأ هناك حياة جديدة، ربما تكون البداية الصحيحة والسليمة. لم يكن يعرف وجهته حينما كان في لندن ولم يجد فيها

<sup>9</sup> الموسم، ص 40.

نفسه الضائعة مهما أخذ من علمها وثقافتها ومهما طاردته نساؤها وتعلقن به تعلقا جسديا شهوانيا عنيفا. لن يجد الطمأنينة أبدا إلا إذا عاد إلى النبع وألقى وراء ظهره بقشور الثقافة الغربية مع الإبقاء على جوهر هذه الثقافة ثم مزج هذا بواقع بلاده. هنا فقط بل هكذا فقط سيصبح مصطفى سعيد / بطل موسم الهجرة/الأنا/الذات العربية إنسانا منتجا وفعالا له دور حقيقي في الحياة.

إنّ المتأمل في رواية الطيب صالح والتمتعن فيها يلاحظ مدى عبقرية هذا الكاتب وتفننه في فهم الـ"أنا" في مفهومها الفردي وفي مفهومها الجمعي الـ"نحن" في علاقتها بالـ"هو"/الآخر كذلك في مفهومه الفردي والجمعي. فالأنا كما رسمها الطيب صالح تمثل المثقف العربي الشرقي -الفرد أو الشخص- في صدامه مع الغرب وحضارته ونزعتة الاستعمارية الاستعلائية من جهة وتمثل كذلك الصدام الثقافي والحضاري بين الشرق المستعمر والغرب المستعمر من جهة أخرى. وهي في الرواية ممثلة في ثلاث شخصيات أساسية تعكس المجتمع الشرقي بكل تعقيداته وإشكالاته، وهي مصطفى سعيد والراوي وحُسنه. مصطفى سعيد في مواجهته للغرب، والراوي في مواجهة مصطفى سعيد والغرب من جهة ومجتمعه من جهة أخرى، وحسنه أرملة مصطفى سعيد في مواجهة مجتمعه. أما الشخصية المركزية (أي الأنا في مفهومها الفردي) والتي تدور حولها الـ"أنا" في مفهومها الجمعي الـ"نحن" فهي بلا منازع شخصية مصطفى سعيد المركبة والمتداخلة والمتشعبة في نفس الوقت والتي ترمز - إلى المجتمع السوداني الأفريقي (اللون الأسود)، المجتمع العربي، المسلم، الشرقي والمنتمي إلى أيّ مجتمع في العالم الثالث المضطهد والمستعمر<sup>10</sup>. فإذا كانت الـ"أنا" / الذات تنقسم إلى "أنوات" وذوات متشعبة ترمز في مضمونها إلى الشرق بكل ما يمثله فإنّ الآخر أيضا متشعب تشعب الأنا وينقسم بدوره إلى آخرين.

فمتلما أسلفت القول في بداية هذه الدراسة أنّ الآخر هو الغرب الإمبريالي/ المستعمر الذي ظل يشكل قوة للخطرسة والعنف والإبادة والظلم والضميم (ممثل في الشخصيات النسائية التالية: آن همند وجين موريس وشيلا غرينود وإيزابيلا سيمور). وهو أيضا وجه آخر للغرب المتحضر الذي يرجع له الفضل في تكوين الراوي وفي تكوين الطيب صالح نفسه وفتح عينيه على الحرية الحق (ترمز إليه في الرواية شخصية "مسزروبسن" التي عند لقائها بمصطفى سعيد احتضنته بين ذراعيها وفي بيتها احتضان الأم لولده. وهي وجه الغرب الإنساني الذي يقبل الآخر كندّ يستحق الاحترام والمساواة).

<sup>10</sup> حول شخصيات الرواية ورمزيّتها وعلاقتها ببعضها البعض أنظر، رجاء النقاش، المرجع السابق، ص 80-95 وينظر أيضا في "خطاب الأنا والآخر في روايات الطيب صالح" موسم الهجرة إلى الشمال أنموذجا"، مقاربة تفكيكية تأويلية، مذكرة من متطلبات درجة الماجستير، إعداد اللقاني بن محمد، إشراف محمد بلقاسم، 2012-2013، ص 59-65.



والآخر هو أيضا الشرق ذاته أو بالأحرى الآخر كجزء من الذات وأعني بذلك القوالب الاجتماعية والدينية المتحجرة التي تعادي كل فكر تقدمي نير في المجتمع السوداني الذي يمثل بدوره المجتمع الأفريقي، العربي، الإسلامي، والشرقي بتركيباته وتعبداته الاجتماعية والدينية. "فحسنة" أرملة مصطفى سعيد وهي الوجه المشرق للسودان الباحث عن التغيير والانعتاق من القيود الاجتماعية والدينية، رفضت أن تتزوج عجوزا يكبرها بأربعين سنة، فُرض عليها وفقا للعادات والتقاليد السائدة والأعراف الثابتة لكنها رفضت الرضوخ والاستسلام للآخر المتخلف والمتعصب ودافعت عن نفسها دفاعاً مستميتاً وصل إلى درجة القتل، قتلت العجوز وقتلت نفسها في دوامة جنون العنف التي ترك مصطفى سعيد بذرتها في كل من اتصل به. ومما لا شك فيه -وكما أسلفنا القول- أن الطبيب صالح وظف شخصياته الثلاثة من أجل معالجة مكامن الداء والوجع في وطنه ميبنا الحاجة إلى شفائه منها وذلك مهما كلف الثمن. فهي -أي الشخصيات- والتي تمثل الأنا بمفهومه الفردي والجمعي- التي تقود الصدام وتضرم نار الصراع مع الآخر/الغرب أو مع الآخر في المجتمع الشرقي العربي وهو ما يجعل الصدام معقّد وعنيف نهايته مأساوية تصل حدود الموت لكن الموت هنا اختياري هدفه التضحية من أجل التغيير والنهوض بالشرق/الجنوب من غيبوبة الفقر والجهل والتخلف والتطلع إلى مستقبل أفضل وأجمل.<sup>11</sup>

### خاتمة:

لقد طمحت هذه الدراسة جاهدة إلى تقصي حضور ظاهرة الأنا في تداخلاتها وتفاعلاتها وعلاقاتها المركبة والمتشابكة مع الآخر مع محاولة استقراء ملامح هذه العلاقة الثنائية التي تمثلت في بعديها التضادي تارة والتوحيدي تارة أخرى وذلك من خلال "موسم الهجرة إلى الشمال"، ذلك العمل الإبداعي الفذ الذي نسجه صاحبه بأسلوب ناضج وفريد عالج به تعددية الأنا وتعددية الآخر كجزء من رهانات التوتر الثقافي في الشرق والغرب وصدمة اللقاء الحضاري بالآخر المختلف حضارياً واجتماعياً وما يصحبها وينجم عنها من إشكاليات وتحولات، تلك الصدمة التي ترافقها دائماً إشكالية الهوية التي تحتل حيزاً هاماً في الفكر العربي المعاصر.

<sup>11</sup> حول شخصيات الرواية يُنظر في خطاب الأنا والآخر في روايات الطبيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" أنموذجاً مراقبة تفكيكية تأويلية، مذكرة من متطلبات درجة الماجستير، إعداد القاني بن محمد، إشراف محمد بلقاسم، جامعة تلمسان، 2012-2013، ص 59-67

لقد طرح الطبيب صالح موضوع هذا اللقاء بطريقة موضوعية متوازنة وعقل متبصر وليس بعقلية الحماس المطلق للآخر ولا العداوة المطلقة له<sup>12</sup>. ففي نهاية الأمر وعلى حدّ تعبير واسيني الأعرج "الآخر هو الآخر والأنا هو الأنا ويمكن أن تحدث داخل هذه الأنا تقاطعات باتجاه الآخر والعكس أيضاً"<sup>13</sup>. ولكن المهم -وهو ما أراد الطبيب صالح- في اعتقادي إبرازه سواء كان ذلك في الرواية التي نحن بصددّها أو في أعماله الأدبية الأخرى- أن تكون العلاقة مبنية على التكافؤ والاعتراف بالآخر وبتبادل الثقافات، خاصة وأنّ المرحلة الراهنة تحتمّ ضرورة إعادة النظر بالذات، الذي يترتب عنه الوعي بالذات وبالتالي الوعي بصورة الإنسان عن نفسه أو تصوّره لنفسه وعلاقة ذلك بمفهوم الغيرية أي بمعنى الوعي بوجود الآخر المغاير ومعرفة السمات المميّزة والحدود الفاصلة بين الأنا والآخر.

إنّ الأنا/الذات البشرية/الهوية ليست كتلة جامدة أو شيئاً صخريّاً ثابتاً وإنّما هي مثلها مثل الحياة في صيرورة دائمة متحرّكة تخضع للتغيير وتسعى إليه وتفتح بواباتها له أو يقتحم هو عليها عزلتها وانغلاقها لكنّها لا تفقد في الحالين روحها وعقلها. فاندماج الأنا / الإنسان وتقبل الآخر / الإنسان ضروري ما لم يمسّ ذلك هويته العربية وذاته.

إنّ السعي إلى اكتشاف معالم الآخر - مهما كان نوعه، فاتحاً، عقيدة، ثقافة، شخصاً، جماعة، مجتمعاً آخر، كتاباً، لوحة أو أيّ عمل فنيّ آخر - ، وإثارة التساؤل والتأمل الفكريّين في أحوال الفرد ومجتمع وثقافته مع الاجتهاد لمعرفة الذات الفرديّة والجماعية ومواطن الخلّ فيهما في الوقت نفسه، بات حاجة ماسة لاستمرار الحياة وتقدّمها حينها فقط تصبح صدمة اللقاء تلك لحظة يقظة وتنوير متبادل للثقافات والهويات والمجتمعات كافة وإلّا ستتعمّق الاختلافات وتنمو إلى أن تتحول العلاقة إلى شي آخر يتعارض مع إنسانية الإنسان وطبيعة الحياة البشرية، حياة تقوم على الكره والأحقاد والضغينة التي تؤدي حتماً إلى السقوط في متاهة حروب الأصول والأحقاد.

<sup>12</sup> الفكرة مستوحاة من مقال لواسيني الأعرج، المرجع السابق.

<sup>13</sup> المرجع السابق.